نظرية التعلم الاجتماعي المحاضرة الحادية عشر

التعلم بالملاحظة : باندورا

(كورنيليوس جى هولا ند واكبرا كوب سيجاوا)

بدأت مع سكينر فكرة تعديل السلوك ،أو تشكيل السلوك Shapingبواسطة التشريط الآدائى ،وكان ذلك يتم من خلال سلسلة عمليات التقريب المتتابع Successive approximationأو عمليات التقويم المتتالية،ومثال لذلك أن نعلم الفأر الضغط على ذراع داخل صندوق سكينر ،،فتسقط له ،ثم يحملها الفأر ويجرى بها إلى الطرف الآخر من القفص ،ثم يسقط معها فى حفرة ويجرى بعد ذلك إلى مكان ثابت يحصل منه على الطعام .

هذا السلوك المعقد لم يتم تعلمه دفعة واحدة،بل من خلال عمليات تقريب متتالية ، والمهم أن ذلك قد فتح الأفاق أمام إمكانيات التطبيق لهذا النوع من التعلم ،سواء فى مجالات العلاج النفسي بالنسبة للحالات المرضية أو حالات التخلف العقلي ،أو مواقف التعليم والتدريب وغيرهما.

والذي نلاحظه أن المنبه فى التشريط الكلاسيكي يعتبر مدعم ،لكن المنبه فى التشريط الآدائىهو (شرط) أو ظرف يصدر فى ظله الأداء مع توفر بأبقى الشروط الأخرى كالحرمان من الطعام فى التشريط الكلاسيكي ربط بين منبهين إحداهما طبيعي والأخر صناعي أما فى التشريط الأدائى فالربط بين استجابة مرغوبة ومكافأة ، أي أن المنبه لا يستصدر بذاته الأداء بصورة آلية كالتشريط الكلاسيكى، ..سكينر لا يتكلم عن روابط بين المنبهات والاستجابات بل عن معدل صدور سلوك أدائي فى ظل مجموعة من الظروف ،ولا يتصور أن الرابطة تحدث شيئا ما فى الجهاز العصبي،والمنبهات عند سكينر أذن هي بمثابة شروط ارتبطت بظهور السلوك الأدائى.

وهناك حاليا خلاف بين وجهتين من النظر فى موضوع تعديل السلوك هذا من وجهة نظر يمثلها "سكينر" واتباعه ،وأخرى يمثلها أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي .

وهـذا الخـلاف بـين الـوجهتين ينحصـر فى مـدى تفسـير كـل منهمـا "للـتعلم المعـرفي"Cognitive Learning،والعمليـات المعرفيـة Cognitive Processesفيميـل اتبـاع "سـكينر"إلى تبـنى وجهـة النظـر الـتي لا تتعـدى حـدود المظـاهر الخارجيـة للاسـتجابة والوجهـة الـتي تتجـه إليهـا ،أي تقـف أمـام التوجـه الخارجي للاستجابة وليس ما تثيره من عمليات معرفية (تمثل ...رمز...الخ).

ومن ناحية أخرى فأن أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي لا ينكرون التعلم المباشر القائم على الربطة بين المنبه والاستجابة ولكنهم يعطون اهتماما أكبر للأحداث الوسيطة Midiational Events أي يعيروا اهتماما أكبر لكيف يحول شخصا ما (من خلال عمليات التمثل الداخلي للأحداث) المنبه المعين إلى سلسلة من الرموز أو الصور.. أكثر منها استجابات لفظية.

المسألة الأساسية هنا هي ما إذا كان السلوك المقابل للمشاهدة يعد موضوعا محل الاهتمام الأساسي فى علم النفس ،أو ما إذا كان يعتبر السلوك مجرد دليل (أو حجة أو شاهد) على فعالية Operationأو إجرائية العمليات المعرفية (العقلية Mental) والتي لابد أن تعتبر الموضوع الحقيقي لعلم النفس وكما تذكرون ،فأن الخلاف بين العلماء فى مجال التعلم ليس خلافا على المبادئ والحقائق الأساسية ،بل هو اختلاف على التفسير ،أي ليس خلافا على الظاهرة المعينة،بل هو اختلاف حول تفسيرها ،واختلاف التفسير يؤدى بطبيعة الحال إلى اختلاف النظر إلى الظاهرة ،وبالتالي للمناهج المستخدمة فى النظر إليها.

وهـذا يـؤدى إلى الاخـتلاف فى طبيعـة ونـوع التجـارب الـتي تجـرى لإثبـات صـحة التفسيرات التي يقول بها كل فريق .

ولقد يكون هناك انطباع بأن نظرية التعلم الاجتماعي بوصفها ممثلة للاتجاه المعرفي الحديث فى علم النفس ،تعالج موضوع الذاكرة البشرية ،والعمليات الادراكية دون غيرها من الموضوعات الأخرى كالدافعية والمكافأة..الخ .

ولكن ذلك غير صحيح لأن هذه النظرية تحاول أن تقدم كيانا متوازنا يجمع بين مبادئ ومفاهيم علم النفس المعرفي ومبادئ تعديل السلوك ،أي تحاول أن تحقق نوعا من التكامل الذي يجمع بين المسائل العديدة وذات الأهمية لأي نظرية تعنى بالتعلم وتعديل السلوك .

ثم هي فوق ذلك لا تتعامل فحسب مع مجموعة مبادئ التعلم المألوفة بل تضيف مبادئ جديدة وتحاول أن توضح كيف تمثل صور الكفاية الاجتماعية ،وجوانب الشخصية،كيف تمثل هذه الأبعاد ظروفا حية يتم فيها حدوث هذا النوع الهام من التعلم الاجتماعي ،كذلك فأنها تعنى بأساليب تقدير الشخصية وتعديل السلوك فى المجالات التربوية والإكلينيكية،وغيرها من المجالات التطبيقية.

ونظرية التعلم الاجتماعي تأخذ بنفس موقف السلوكية فى رفضها للأسباب الداخلية ،كأساس لاضطراب السلوك (وهو الأساس فى نظر علم النفس الفرويدى "الدينامى" الذي يرى أصحابه أن إصلاح الاضطراب السلوكي يكمن فى إلغاء الأسباب الداخلية.

وبالتالي فإن تعديل السلوك فى رأى نظرية التعلم الاجتماعي (والسلوكيين أيضا) يتم بصرف النظر عن هذه الأسباب الداخلية ،لكن مع هذا الاتفاق مع السلوكية فى رفض الأسباب الداخلية فأنهم يختلفون معها فى أنهم يؤكدون على الوظائف المعرفية والرمزية فى اكتساب الإنسان لأشكال جديدة من السلوك فى تنظيم تكرار حدوث هذه الأشكال المألوفة وفرض ظهورها ،ولذلك نجد باندورا Bandora1971يقرر ما يأتى:

أن النقد الموضوعي لتطرف السلوكية يقوم على أساس أنها مع كل ما بذلته من جهد فى تجنب القول (بالأسباب الداخلية) الزائفة) قد تجاهلت محددات سلوك الإنسان التي تنهض على وظائفه المعرفية،وذلك أن الإنسان كائن مفكر،ويملك الإمكانيات التي تمده بالقدرة على التوجه الذاتي،ويترتب على ذلك أن النظريات السلوكية التقليدية مخطئة بشكل ما ،لأنها لم تمدنا إلا بتفسير ناقص وغير دقيق للسلوك البشرى.

أما بالنسبة لنظرية التعلم الاجتماعي فأنها تؤكد تأكيدا خاصا على الأدوار الهامة التي تلعبها العمليات المعرفية الداخلة فى العلم بالعبرة Vicarious Learning،والتعلم الرمزيSymbolic Learningوعمليات التنظيم الذاتي Self Regulating للسلوك.

من ناحية أخرى فأن نظريات التعلم التقليدية قد أكدت بشدة على التعلم بالخبرة المباشرة وذلك عن طريق تطبيق شروط التدعيم للاستجابات الممارسة (أو المدرب

عليها) ،وانتهى بها ذلك إلى أفكار عامة غامضة عن التعلم بالعمل" Learning by Doingالقائمة على فكرة تمايز الاستجابة وعلى تشكيل سلاسل من السلوك المعقد بواسطة التقريب المتتابع .

وتقبل نظرية التعلم الاجتماعي المبادئ المتبعة فى تشكيل السلوك ،على الرغم من أنها تميل إلى أن تنظر إلى دور المكافآتRewardsفى عملية التشكيل هذه لا على أنها مدعمات مباشرة بل بوصفها حامل (أو موصل أو ناقل) للمعلومات عن الاستجابة المثلى Optimal (الاستجابة المفضلة أو الاستجابة الأحسن) فى الموقف ثم بوصفها فى نفس الوقت –مزودة بالباعث الدافعى Incentive Motivation بالنسبة لأي فعل Actأو سلوك أو تصرف ما بسبب المكافأة المتوقعة عليه .

أي أنها تنظر لدور المكافأة على أنه دور مزدوج يجمع بين كونها مؤشر للاستجابة المفضلة ،وكونها تمثل الباعث الذي يدفع إلى توقع المكافأة بالنسبة للسلوك أو التصرف للمكافأة ،وبالتالي تدفع إلى أدائه وتعلمه.

"ملحوظة :أن الموقف هنا فيه عمليات تفكير وتمثل معرفي وإدراك وتوقع وتذكر...الخ)

وعلى العكس مما يؤكد عليه فى التعلم بالعمل فأن نظرية التعلم الاجتماعي تعتقد أن قدرا كبيرا من التعلم يتم بالعبرة Vicariouslyأي من خلال مجرد رؤية أخر يفعل ويثاب أو يعاقب، بمعنى أوضح من خلال مشاهدة شخص أخر يؤدى الاستجابات الماهرة ،أو بمجرد أن يقرأ عنها أو يرى صورا لها..وهو يتعلمها حين يبدأ فى محاولة تقليد هذه الاستجابة الماهرة مثلا التي شاهدها من خلال الشخص أو النموذجModel أو القدرة بهذه الطريقة فأن المشاهد يمكن أن يتعلم ثم بمضي الوقت يمكن أن يؤدى استجابات جديدة (لها نفس الطابع) لم يسبق مشاهدتها وبالتالي لم يحدث لها أي تدعيم ،بما أنها لم تحدث أمامه من قبل .

ومن الواضح أن عددا كبيرا من المهارات الإنسانية (كنطق كلمات أجنبية مثلا) لا يمكن اكتسابها أو تعلمها على الإطلاق بدون هذا التعلم الشهودى Observational(أو التعلم بالمشاهدة) .

ونفس الشيء بالنسبة لمهارات أخرى معقدة مثل قيادة السيارات والتي يحتاج تعلمها إلى جهد (وإلى مخاطرة أيضا) والتي يتم تعلمها بواسطة التقريب المتتابع المدعم ،مثل هذه المهارات يكون المران عليها أكفأ من خلال استخدام التعليمات اللفظية والتقديم لها بواسطة "مؤدى القدرة" Model Performer

وفيما يرى القائلون بنظرية التعلم الاجتماعي فأنه على الرغم من أن هذه الأساليب التعليمية تستخدم بشكل روتيني،وعلى الرغم من كونها أساليب مألوفة لنا جميعا،فأنه ينبغي علينا أن نعرف أنها تختلف جدا بالفعل عن الصيغة المستخدمة فى التدريب بإتباع إجراءات التدعيم الأدائى القاصرة ،أي أن المسألة هنا ليست استجابة مطلوبة يجرى تدعيمها بمكافأة على صدورها بل بمشاهدة المواقف .

وتمثل هذه المواقف معرفيا بالمعنى الواسع (أي إدراكها وتمثلها ، وتقويمها ،والاقتناع بها ..الخ.

أن ابرز ما تقول به نظرية التعلم الاجتماعي على أي حال هو ما يعرف الآن باسم التعلم الشهودىObservational Learning بوصفه إحدى الوسائل الأساسية التي يكتسب من خلال نماذج أو طرز معينة من السلوك ،وإيجاد أنماط معدلة منها،والتي تستلزم عمليات الاقتداءModeling،والعبرة Vicariouslyأي الاعتبار بالمشاهدة.

والواقع أن البحوث التي أجريت فى إطار نظرية التعلم الاجتماعي توضح فعلا أن كل ظواهر التعلم التي تنتج عن الخبرات المباشرة يمكن أن تحدث على أساس من العبرة (الاعتبار بالمشاهدة).

والواقع أن البحوث التي أجريت فى إطار نظرية التعلم الاجتماعي توضح فعلا أن كل ظواهر التعلم التي تنتج عن الخبرات المباشرة يمكن أن تحدث على أساس من العبرة (الاعتبار بالمشاهدة) أي من خلال مشاهدة سلوك شخص ،وما يترتب على هذا السلوك ،وعلى هذا يمكن لأي شخص مثلا أن يكتسب أنماط الاستجابة المعقدة ،أو صعبة الحل بمجرد مشاهدة صور أدائها من نماذج أو أشخاص تمثل قدوة تحتذي.

كذلك فأن الاستجابات الوجدانيةEmotionalيمكن أن يجرى لها تشريط Conditioningعن طريق مشاهدة ردود الفعل التي يبديها الآخرون للخبرات المؤلمة أو السارة .

كذلك فأن سلوكا كالخوف أو التهيب يمكن أن يخمد Extinguishedبالعبرة أيضا من خلال المشاهدة لسلوك يقتدي به تجاه أشياء مثيرة للخوف،دون حدوث أي نتائج (مؤلمة مثلا أو مخيفة) تترتب على ذلك تحدث للمؤدى(أو القدوة).

كذلك فأن أشكال الكفInhibitionsيمكن أن يتعلم بمشاهدة السلوك المعاقب لأشخاص آخرين ..الخ.

وعلى هذا الأساس يمكن أن تصنف ظواهر الاعتبار أو العبرة Vicarious Phenomenaعموما تحت مجموعة متنوعة من المصطلحات وهى كالتالي:

١. الاقتداء (النمذجة) Modeling
٢. التقليد Imitation
٣. التقمص (تبنى أنماط سلوكية معينة) Identification
٤. التعلم الشهودى(بالملاحظة) Observational Learning
٥. التيسير الاجتماعي Social Facilitation
٦. التعلم بالعبرة. Vicarious Learning
٧. لعب الدور Role Playing
٨. النسخ (أو النسخ على غرار) Copying
٩. العدوى(انتقال أشكال السلوك من شخص لآخر) Contagion

ويجب التركيز على التعلم الشهودى ومعناه فى نظرية التعلم الاجتماعي Learning

التعلم الشهودى (التعلم بالملاحظة)

Observational Learning

كشفت سلسلة من الكتب والدراسات المنشورة عن مدى شيوع "التعلم الشهودى"(التعلم بالملاحظة) فى كل ظواهر التعلم ،وكغاية بالنسبة للبشر ،كما أكدت على خصائصه الفريدة التي لا توجد فى الصيغ المألوفة عن تشكيل السلوك ،والتشريط الأدائى.

وقد أجريت دراسات مبتكرة على الأطفال ألقت الضوء على المتغيرات المؤثرة فى مثل هذا التعلم الشهودى.

ونعرض ذلك بمثال لتجربة توضح هذه المتغيرات المؤثرة فى مثل هذا التعلم بالملاحظة(الشهودى) وهذه التجربة يستخدم فيها طفل فى سن الحضانة (كمفحوص) يجلس ويشاهد شخصا ما (هو النموذج أو هو القدوة) يؤدى سلسلة سلوكية معينة،بعد ذلك يختبر الطفل تحت شروط خاصة مضبوطة،لكي يحدد إلى أي مدى أصبح سلوكه الآن يحاكى بالعرض عليه بواسطة الشخص النموذج ،أو القدوة،ثم يقارن ما يفعله هذا الطفل بما يفعله أطفال آخرون (يمثلون مجموعة ضابطة)يتم اختبارهم دون أن نجعلهم يشاهدون أداء الشخص القدوة، وإنما يزودون بمعلومات عن السلوك بأي إجراء آخر غير المشاهدة.

ومن المتوقع أن هناك عددا من العوامل يمكن أن توجد فى مثل هذا الموقف وتختلف عن بعضها البعض من حيث التأثير بغير شك،ومن أهم هذه العوامل أو المتغيرات ما يلي:

خصائص القدوة"النموذج"(وتمثل منبهات)Stimuliمؤثرة فى المفحوص:

١. خصائص ذات تأثير على المفحوص:

ويجب أن تكون موجودة فى الشخص القدوة(أو النموذج مثل السن –النوع الجنس–المركز أو المكانة،مثل هذه المتغيرات يختلف تأثيرها النسبي باختلاف المفحوص.

فكلما كان الشخص القدوة من ذوى المكانة المرتفعة بالنسبة للمفحوص كلما كان تقليده له أكبر .

٢. مشابهة القدوة للمفحوص:

فقد يكون القدوة طفلا آخر من نفس الفصل أو طفل فى فيلم سينمائي ،أو شخصية حيوان فى فيلم كرتوني(ميكى ماوس مثلا)،وفى هذا كشفت الدراسات عن أنه تقل المحاكاة كلما بعد النموذج (القدوة) عن أن يكون شخصا حقيقيا ،بمعنى أن تقل المحاكاة كلما بعدت المشابهة عن شخص حقيقي.

٣. نوع السلوك المقتدى به(أي المؤدى بواسطة القدوة):

وفى هذا كشفت الدراسات عن الآتي:

أ- أنه كلما زاد تعقد المهارة المطلوب تعلمها كلما قلت درجة تقليدها أي أن المهارات أكثر تعقيدا درجة التقليد لها أقل،إذا لم يتيسر للمفحوص المشاهدة الكفاية بالعدد المناسب من المرات.

ب- أن الاستجابات العدوانية (أو السلوك العدائي) تقلد بدرجة عالية(أفلام الكاراتيه -والمغامرات مثلا).

ت- أن المفحوص سوف يتبنى معايير الجزاء الذاتي المشابهة لما يمثله القدوة سوف يقلد نوع المعايير الأخلاقية (القيم الخاصة) التي يتاح له مشاهدتها من خلال أي قدوة راشد كذلك يمكن ضبط النفس بهذه الطريقة نفسها.

٤- النتائج المترتبة على السلوك القدوة:

تختلف درجة التقليد باختلاف النتيجة المترتبة على السلوك ،أي تختلف وفقا لكون السلوك كوفئ(دعم) أو عوقب (يعاقب أو ينفرمنه) أو يلقى التجاهل (أي لا يدعم ولا يعاقب)،وهنا نجد أن أنواع السلوك الصادرة عن الشخص القدوة،وأثيبت أو كوفئت تكون قابلة أكثر من غيرها لأن تكون موضوع المحاكاة،أو التقليد .

٥- التعليمات المقدمة للمفحوص قبل أن يشاهد القدوة.

والمقدمة له متضمنة دافعية عالية أو منخفضة،لكي يعطى انتباهه إلى سلوك القدوة ويتعلم منه هنا نجد أن :

أ- الدافعية العالية يمكن أن تثار بأخبار المفحوص أنه سوف يكافأ بمقدار يتناسب مع المقدار الذي يستطيع أن يبديه من سلوك القدوة.

ب- التعليمات المثيرة للدافعية بمقدار قليل لا ينتج إلا نوعا من التعلم يندرج تحت ما نسميه التعلم المؤقت أو التعلم "العرضي أو الطارئIncidental

ت- التعليمات المثيرة للدافعية بقدر كبير يمكن أن تقدم للمفحوص بعد أن يؤدى القدوة وقبل أن يختبر،مثل هذا الأجراء يساعد المفحوص على أن يلحظ الفرق (أو يميز) بين التعلم وبين أداء استجابات مقلدة.

هذا الحصر للمتغيرات فى موقف التعلم الشهودى،ليس شاملا بالضرورة والمقصود به فقط أن يوضح مدى الاحتمالات القائمة فى الموقف،والمدى العريض من أشكال السلوك يمكن أن يعلم أو يغير تحت هذه الشروط عن طريق القدوة.

ومن خلال اندماج ودقة تقمص المفحوص والملاحظ غالبا أنه كما ذكرنا من قبل فأنه حتى تحت ظروف التعلم العرضي فأن سلوك القدوة يقلد حين يكافأ أكثر منه حين يعاقب .

وقد استطاع باندورا **Bandora** أن يوضح أن متغير المكافأة العقاب ،هذا قد أثر فى أداء المفحوص للاستجابات المقلدة لكنه لم يؤثر فى تعلمه لها ،فقد وعد باندورا المفحوصين بعد جلسة لمشاهدة بتقديم مكافآت مغرية جذابة لهم إذا أمكنهم أن ينتجوا استجابات مشابهة لسلوك القدوة .

وتبين له أن هذا الأجراء قد زاد من عرض (أو إبداء) الاستجابات المقلدة،وقد محا الأثر الفارق لكونهم رأوا القدوة كوفئت أو عوقبت لهذا وجد أن المشاهد كان قد تعلم الاستجابات السيئة للشخص القدوة حتى بالرغم من أنه لم يؤدها،إلى أن قدم له الباعث على عرضها ،أى أنه أدى ما أداه للشخص القدوة،بصرف النظر عن كون هذا السلوك (كما صدر عن القدوة) قد كوفئ أو عوقب.

و نأتي أخيرا لعرض ميكانزمات هذا التعلم الشهودى(التعلم بالملاحظة) على هذا النحو:

أن التحليل للميكانزمات (أو الحيل) التي يتم على أساسها التشريط الآدائى فى عملية الإقتداءModeling(أو التعلم بالملاحظة) ينتهي فيه باندورا وزملائه إلى صيغة متقنة تقوم على ثلاثة حدود وهى:

أ- SD, R, SR حيث ترمز (SD) إلى المنبهة المقتدى به(السلوك المقتدى به وهو الذي يقوم به الشخص القدوة مثل حك أو لمس أذنه اليسرى مثلا).

١- (R) وهى ترمز إلى الاستجابة الصريحة المماثلة ،أو المناظرة،التي أداها المشاهد والمماثلة لسلوك القدوة.

٢-(SR) وهى ترمز إلى التدعيم المقدم (من المجرب مثلا) لهذه الاستجابة المناظرة أو المقلدة لسلوك الشخص القدوة.

ويؤكد باندورا فى تحليله للتعلم الشهودى على أربع عمليات خاصة مرتبطة ببعضها وهى:

١-العملية الانتباهية(عملية الانتباه)Attention .

٢-عملية التسجيل Retention(أو الحفظ أو التذكر).

٣- مهارات الأداء الحركي.

٤-التدعيم أو عملية توقع التدعيم"بوصفه عاملا دافعيا يحدد أسلوب التعبير عن المعارف والمدركات وأنواع السلوك المتعلمة من قبل...

إن نظرية التعلم الاجتماعي نظرية توليفية ،إنها سلوكية معرفية تحلل السلوك الاجتماعي ودافعيته وتعزيزه على أساس الوقائع المعرفية التي تتخلل وتتوسط أثر الوقائع الخارجية ،وعلى سبيل المثال فإن من المسائل الهامة التي تتصل بشروط التعزيز طريقة فهم الشخص لها ،وكيف يتصورها ذاتيا بغض النظر عن خصائصها الموضوعية .